نازحون بلا حدود

أقسى أنواع المشاعر هي التي تمس الواقع وتكون عارية من كل زيف.. واضحة، قوية.. تهزنا كالنخل في مهب الريح.. رجاء لا تلوموني لتلك السوداوية.. فبحكم عملي شاهدت الكثير من المآسي التي أرهقت روحي ولكن زادتني إيمانا بالله..

أعمل طبيبة في (منظمة أطباء بلا حدود) .. مهمتنا أن نذهب إلى أماكن الكوارث نساعد الناس نعالج المرضى نداوى الجرحى والكثير من المهام.

اليوم كان ميعاد خروجنا لعرض البحر لمساعدة المهاجرين غير الشرعيين .. تم تجهيز السفينة .. ولم يكن عددنا كبيرا فنحن نحاول ترك أكبر مساحة ممكنه على السفينة .. فالأعداد التي نتوقع إنقاذها قد تصل للعشرات.. خرجنا كما اعتدنا في الصباح الباكر.. كنا بالخريف والغيوم السوداء تغطى السماء وتعانق البحر على امتداد النظر.. رحنا نجوب جوانب البحر الأبيض المتوسط ننتقل من الحدود

المصرية إلى الحدود الليبية ونتساءل متى تنتهي تلك الرحلات غير الشرعية ؟! متى نتخلص من سماسرة الموت ؟! .. فنحن نعرف أن المهاجرين يخرجون بقدر ضئيل من البنزين يسمح لهم فقط بالهروب من حدود بلادهم وبعد أن يختفي الشاطئ يضيعون ..

تقاذفهم الرياح العاتية والأمواج الغاضبة.. حتى وسيلتهم للنجاة هي بوصلة غير دقيقه.. ويحلمون بالوصول إلى الشواطئ الأوربية ولكن الكثير منهم لا يعرفون الطريق .. يغرقون أو يضلون السبيل إلى إحدى الجزر. ها نحن لنا يومان ولم نصادف أي قارب.. ولكن هذا لا يبعث على التفاؤل فربما العواصف منعتهم... فجأة على امتداد البصر شاهدنا قاربا يتحرك بعنف.. ورحنا نقترب منه في حرص وخوف عليه فقد نصطدم به في هذا الجو العاصف.. وشاهدت عدد قليل من الأفراد وقد راحت الرياح تتقاذفنا.. فما بالك بهذا القارب الصغير وقد أصبح كريشة في مهب الريح ..

وفجأة ضربته موجه عاتية وأصبح عاليه سافله.. ألقينا العوامات.. وأصبحت الأجساد تطفو تارة وتختفي تارة أخرى وقد تلقفهم البحر كوحش ضاري حتى وجدنا بعضهم وقد

تعلق بالعوامات.. رحنا نسحبهم وكأنما قرر البحر أن يأخذهم منا ، راح يشدهم للعمق في صراع أزلي بين الطبيعة والبشر واستطعنا سحب طفلين يبدو أن والدهم قد ربطهم بالعوامة رفعناهم بشق الأنفس وقد تشققت أيدينا ونحن نسحب باستماتة.. ورفعنا سيدة في الثلاثينات يبدو أنها الأم وكانت في غيبوبة وطفقنا نحاول إنعاشها.. وهناك على البعد جسد مستسلم لعبث الطبيعة..

لا نعرف إلى متى يستمر في الطفو قبل أن يبتلعه البحر. وتبرع أحد الرجال للنزول .. أحكمنا وثاقه.. راح يسبح ليصل إلى تلك الأجساد الطافيه وأول ما صادف سيدة كبيرة فربطها بالعوامة وهو لا يعرف هل هي على قيد الحياة ام لا.. وصادف رجلا وقد أسلم جسده للبحر بعد أن أنهكه الصراع مع الموج والريح يصارع للوصول إلى جسد طاف لشاب صغير ولكن بلا جدوى ربطنا الرجل ولكنه كان يرفض بقوة ويشير إلى الجسد الطافي وحاول أن يخلع العوامة ولكنه أصبح منهك لا يستطيع المقاومة..

حاول زميلنا أن يصل للشاب وتمكن من الإمساك به ولكنه لم يتمكن من التشبث به فقد انتزعه الموج من بين يديه كوحش ضار التقم ضحيته.. ووجدنا طفلين في القارب

وهو يطفو بهم ويرفعهم تارة ويلقيهم تارة أخرى وقد أحكم وثاقهم في جوانب القارب وقد شارفوا على الهلاك.. أنقذناهم والحمد لله وما زلت أسمع حتى اليوم أصوات حشرجاتهم وأنينهم يصك أذني .. وبعد بحث مضن لم نجد المزيد وقد بذل الأطباء جهودا مضنية لإنقاذهم.. أفاق الرجل ، وأول ما سأل عن الشاب ، -

فهو ابنه الكبير في السابعة عشر من العمر - .. أخبرناه بالحقيقة فانفجر باكيا.. وقد جلست السيدة في الزاوية تبكي بصوت منخفض فقد أنهكتها معاناة الغرق وعرفنا أن الأب والأم وخمسه من الأبناء وأمه العجوز وأخيه واثنين من أبناء اخيه ولم يتبق من المجموعة إلا الأم والأب وثلاثة من الأبناء والجدة ، وكأنما البحر قد اكتفى فقد هدأت الأمواج واصبحت صفحة الماء كالزجاج الناعم .. وراحت تهدهد المركب برفق ..

ووقفت أراقب ظلمات هذا القبر المتحرك ألم يكتف ؟! فهو يبتلع البشر منذ بدء الخليقة.. أه ما أصعب الحياة فكل يوم أستمع إلى قصة جديدة تحمل بين طياتها معاناة حقيقيه لبشر كل جريمتهم أنهم في بؤرة الصراع على السلطة بكل أنواعها..

فهؤلاء عائله هربت من نار الحرب إلى زمهرير البحر كالمستجير من الرمضاء بالنار.. الأم مصرية والأب ليبي وقد أنهكتهم الحرب القبلية وكذلك النزعة العنصرية فكل دولة تحمل الأخرى مسئولية ما يحدث فيها.. ويعزون حالة البلاد الى المؤامرات الخارجية وتجاهلوا الاطماع الداخلية لذلك أخذ زوجته وعائلته وتسلل في جنح الظلام..

اختاروا الهروب إلى الدول الأوروبية لكن انتهى بهم المطاف هنا .. قد تحجرت الدمعة في عيونهم من القهر بعد إن فقدوا الوطن والأبناء وضاعت منهم الطريق وفقدوا الحياة الكريمة حتى الحلم غرق في البحر كما غرق ذويهم .. وأصبح على عاتقنا ان نجد لهم مخيم لنضع تلك العائلة المنكوبة فيه.. وما أصعب تلك المخيمات ففيها الكثير من الماسي والكثير من الكوارث ولكن لهذا حديث لآخر...